مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(١ كورنثوس ٦: ١٢–٢٠)

يا إخوةُ كلُّ شيءٍ مباحٌ لي ولكن ليس كلُّ شيءٍ يوافِق* كلُّ شيءٍ مُباحٌ لي ولكن لا يتسلَّطُ عليَّ شيءٌ* إنَّ الأطعمةَ للجوفِ والجوفَ للأطعمةِ وسيُبيدُ اللهُ هذا وتلك. أمَّا الجسدُ فليس للزنى بل للربِّ والربُّ للجسد* واللهُ قد أقامَ الربَّ وسيُقيمُنا نحن أيضاً بقوَّتِه* أمَا تعلَمون أنَّ أجسادَكم هي أعضاءُ المسيح. أفآخذُ أعضاءَ المسيحِ وأجعلُها أعضاءَ زانية. حاشى* أمَا تعلمون أنَّ مَن اقترن بزانيةٍ يصيرُ معها جسداً واحداً. لأنَّه قد قيلَ يصيرانِ كِلاهما جسداً واحداً* أمَّا الذي يقترنُ بالربِّ فيكونُ معه روحاً واحداً* أهرُبوا من الزنى. فإنَّ كلَّ خطيئةٍ يفعلُها الإنسانُ هي في خارجِ الجسد. أمَّا الزاني فإنَّه يُخطىءُ إلى جسدِه* أم ألستُم تعلمونَ أنَّ أجسادكم هي هيكلُ الروحِ القدسِ الذي فيكم الذي نِلتموهُ من الله وأنَّكم لستم لأنفسكم*

أحد الإبن الشاطر

في هذه الفترة المباركة التي نتهيّأ فيها للدخول في رحلة الصوم المبارك نحو عيد الفصح المقدس، عيد قيامة ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح، تقرأ الكنيسة المقدّسة على مسامعنا مَثَل الإبن الشاطر الوارد في إنجيل لوقا، في الإصحاح الخامس عشر منه، وذلك لتوضح لنا صورة علاقتنا مع الآب السماوي، والتي كثيراً ما نخطئ في فهمها فنقع في فخ الإبن الشاطر وأخيه الإبن الأكبر، ونسى محبّة الآب التي تنتظر عودتنا إليه دائماً.

يقع هذا المثَل ضمن مجموعة من أمثال ثلاثة قالها الربّ يسوع في مناسبة واحدة هي تذمّر الفرّيسيّين والكتبة من قبوله للخطأة وتناوله الطعام معهم: مَثَل الخروف الضال، مَثَل الدرهم الضائع ومَثَل الإبن الشاطر. وتتشارك هذه الأمثال الثلاثة بخاتمة واحدة هي دعوة الجميع إلى الفرح بالخاطئ التائب: «يأتي إلى بيته ويدعو الأصدقاءَ والجيرانَ قائلاً لهم افرحوا معي لأنّي وجدتُ خروفي الضالَّ» (لو ١٥: ٦)، «تدعو الصديقاتِ والجاراتِ قائلةً افرحنَ معي لأنّي وَجَدْتُ الدرهمَ الذي أَضَعتُهُ» (لو ١٥: ٩)، «فقالَ الأبُ لعبيدِهِ هاتوا الحُلَّة الأولى وألبِسوهُ واجعلوا خاتِماً في يدِهِ وحذاءً في رجلَيه وأتوا بالعِجْلِ المسمَّن واذبحوهُ فنأكُلَ ونفرحَ، لأنَّ ابني هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوُجد، فطفِقوا يفرحون» (لو ١٥: ٢٢– ٢٤). لكن ما هو لافت في المَثَل الثالث هو موقف كلّ من الإبنين تجاه أبيهما من ناحية وموقف الأب الرؤوف تجاه ولديه من ناحية ثانية.

العدد ٢٠١٤/٧

الأحد ١٦ شباط

أحد الإبن الشاطر

تذكار الشهيد بمفيلُس ورفقته

اللحن الأول

إنجيل السَحَر الأول

ومع أنّ موقف الإبنين مختلف في الظاهر، لكنّه متطابق في الجوهر، فكلاهما كانا يريدان الاستقلال عن أبيهما. الفرق ظاهر فقط في التنفيذ: الإبن الأصغر ابتعد فعلاً عن أبيه، أمّا الإبن الأكبر فكان يودّ أن يبتعد فيكون مع أصدقائه، وبذلك يتطابق الموقفان، أحدهما بالفعل والآخر بالنيّة.

نجد في المَثَل أنّ الأب قسم لابنيه ممتلكاته، وهو بعد حيّ، بناءً على طلب الإبن الأصغر، الذي يمثّل الطيش والغرور والتسرّع وعدم الخبرة. فما كان من هذا الأخير إلاّ أن جمع كلّ ما أعطاه إياه أبوه وسافر إلى بلاد بعيدة، تمثّل نطاق الخطيئة والفساد،

لأنَّكم قد اشتُريتم بثمن فمجّدوا اللهَ في أجسادِكم وفي أرواحِكم التي هي لله.

الإنجيل

(لوقا ١٥: ١١–٣٢)

قال الربُّ هذا المَثَل: إنسانٌ كان له إبنان* فقال أصغرُهما لأبيه يا أبتِ أعطِني النصيبَ الذي يخُصُّني من المال. فقسَمَ بينهما معيشتَهُ* وبعد أيامٍ غيرِ كثيرةٍ جمعَ الإبنُ الأصغرُ كلَّ شيءٍ له وسافرَ إلى بلدٍ بعيدٍ وبذَّرَ مالهُ هناك عائشاً في الخلاعة* فلمَّا أنْفقَ كلَّ شيءٍ له حدثَت في ذلك البلدِ مجاعةٌ شديدةٌ فأخذ في العَوَز* فذهب وانضوى إلى واحدٍ من أهلِ ذلك البلدِ فأرسلَهُ إلى حقولِه يرعى خنازيرَ* وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازيرُ تأكلُه فلم يُعطِهِ أحدٌ* فرجع إلى نفسِه وقال كم لأبي من أُجَراءَ يَفْضُلُ عنهم الخبزُ وأنا أهلِكُ جوعاً* أقوم وأمضي إلى أبي واقولُ له يا أبتِ قد أخطأتُ إلى السماءِ وأمامك. ولستُ مستحقًّا بعدُ أن أُدعى لك ابناً فاجعلني كأحدِ أُجرائك* فقام وجاء إلى أبيه. وفيما هو بعدُ غيرُ بعيدٍ رآهُ أبوه فتحنَّنَ عليهِ وأسرع وألقى بنفسِه على عنقِه وقبَّله* فقال له الإبنُ يا أبتِ قد أخطأتُ إلى نطاق غير المؤمنين، وبذّر هناك كلّ ماله عائشاً بإسراف، ولم يجد نفسه إلاّ في الحاجة والعوز. حاول أن يكون واحداً مع أهل تلك البلاد دون جدوى: «فذهب وانضوى إلى واحدٍ من أهلِ ذلك البلدِ فأرسله إلى حقوله يرعى خنازير» (لو ١٥: ١٥)، والخنازير تمثّل الفساد، أي انغمس أكثر فأكثر في الخطيئة. فقط عندما وصل إلى هذه الحال وعى الإبن الأصغر نتيجة خياره وتصرّفاته، إذ لم يدرك أنّ ما كان معه لم يكن له بل كان عطيّة أبيه، وأن استمراره متعلّق بأبيه، مصدر حياته.

أمّا الإبن الأكبر فيصفه الربّ في المَثَل بأنّه «الشيخ» (Presbyteros) الذي يمثّل الحكمة والفهم. هذا بقي مع والده في خدمته والطاعة لوصاياه: «كم لي من السنين أخْدِمُكَ ولم أتعدَّ لك وصيَّةً قطُّ» (لو ١٥: ٢٩)، كان عائشاً في نطاق الله، مع المؤمنين. ومع أنّه لم ينفصل بالجسد عن أبيه ولم يخالف له وصيّة، إلاّ أنّ موقفه الحقيقي من حبّ الذات ظهر عندما قبل الأب عودة الإبن الأصغر، فلم يرد أن يشترك في فرح أبيه، أي وضع نفسه خارج نطاقه، أي خارج نطاق الله، إذ كان يودّ أن يكون مستقلاً عن أبيه.

بالعودة إلى الإبن الأصغر يلفتنا المَثَل إلى أن قبول الأب لابنه لم يكن مشروطاً بكونه مستحقًّا أم لا، بل كان متعلّقاً بموقفه بالعودة إلى أحضان أبيه. هذه هي التوبة، أي أن يعي الإنسان خطيئته وأن يقرّر العودة إلى الله. هنا يجدر بنا أن نميّز بين التوبة والندم. فالندم هو شعور الإنسان بأنّه لم يكن عليه أن يفعل ما فعله: «ماذا فعلت؟ ما كان يجب عليّ أن أفعل ذلك». هذا هو تماماً موقف يهوذا الاسخريوطي الذي أدّى به إلى شنق نفسه.

المهم في هذا المَثَل هو موقف الأب، إنّه موقف الله تجاه خليقته، تجاه الإنسان. هو يعطينا الحياة وينتظر منّا أن ندرك هذا الأمر وأن نعود إلى أحضانه، إلى فرحه، إلى ملكوته. ولكن خبرته مع هذا الإنسان سيّئة، لأنّ هذا الأخير يحاول دائماً الابتعاد عن الله معتقداً أنّه يستطيع العيش بعيداً عن نبع حياته: «اعبُروا جزائرَ كتّيمَ وانظروا وأرسِلوا إلى قيدارَ وانتبهوا جدًّا وانظروا هل صار مثل هذا؟ هل بَدَلَتْ أُمَّةٌ آلِهةً وهي ليست آلِهةً؟ أمَّا شعبي فقد بدَلَ مجدَهُ بما لا ينفَع. ابهَتي أيتها السموات من هذا واقشعرّي وتحيَّري جدًّا يقولُ الربُّ، لأنَّ شعبي عَمِلَ شرَّين: تركوني أنا ينبوعَ المياهِ الحيَّةِ لينقُروا لأنفسِهم آباراً مُشقَّقةً لا تضبُطُ ماءً» (إرميا ٢: ١٠–١٣)، «لأنَّ أمَّهم قد زنَتْ. التي حَبِلَتْ بهم صنعت خِزياً، لأنَّها قالت أذهَبُ وراءَ مُحبيّ الذينَ يُعطونَ خُبزي ومائي، صوفي وكتّاني، زيتي وأشربتي. لذلك هأنذا أُسيِّجُ طريقَكِ بالشوكِ وأبني حائطها حتى لا تَجِدَ مسالِكَها، فتتبَعُ مُحبّيها ولا تُدرِكهم وتُفتّش عليهم ولا تجدهم. فتقولُ أذهبُ وأرجِعُ إلى رَجُلي الأوَّلِ لأنَّه حينئذٍ كان خيرٌ لي من الآن. وهي لم تعرِفْ أنّي أنا أعطيتُها القمحَ والمِسطارَ والزيتَ وكثّرتُ لها فِضَّةً وذَهَباً جعلوهُ لبعل» (هوشع ٢: ٥–٨)، «اسمعي أيَّتها السمواتُ وأصغي أيَّتها الأرضُ لأنَّ الربَّ يتكلَّمُ. ربَّيتُ بنينَ ونشَّأتُهم. أمَّا هم فعَصَوا عليَّ. الثورُ يعرِفُ قانيهُ والحمارُ معلف صاحبه، أمَّا إسرائيلُ فلا يعرفُ، شعبي لا يفهم» (أشعياء ١: ٢–٣) (راجع أيضاً حزقيال ١٦).

السماءِ وأمامك ولست مستحقًا بعدُ أن أدعى لك ابناً* فقال الأبُ لعبيدهِ هاتوا الحُلَّة الأولى وألبسوه واجعلوا خاتماً في يدهِ وحذاءً في رجليه* وأتوا بالعِجْل المسمَّن واذبحوه فنأكُل ونفرَح* لأنَّ ابني هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوُجد. فطفقوا يفرحون* وكان ابنُه الأكبرُ في الحقل. فلمَّا أتى وقربَ من البيتِ سمعَ أصواتَ الغناءِ والرقص* فدعا أحد الغلمانِ وسألَهُ ما هذا* فقال لهُ قد قدِمَ أخوك فذبحَ أبوك العجلَ المسمَّنَ لأنَّه لقيَهُ سالماً* فغضبَ ولم يُرِدْ أن يدخل. فخرجَ أبوهُ وطفِقَ يتوسَّلُ إليه* فأجابَ وقالَ لأبيهِ كم لي مِنَ السنينِ أخدِمُكَ ولم أتعدَّ لك وصيةً قطُّ وأنت لم تُعطِني قطُّ جَدياً لأفرحَ مع أصدقائي* ولمَّا جاءَ ابنُك هذا الذي أكلَ معيشتك مع الزواني ذبحتَ له العِجلَ المسمَّن* فقال لهُ يا ابني أنت معي في كلِّ حينٍ وكلُّ ما هو لي فهو لك* ولكن كانَ ينبغي أن نفرحَ ونُسَرَّ لأنَّ أخاك هذا كانَ ميتاً فعاشَ وكانَ ضالاً فوُجد.

تأمل

«كل شيء مباحٌ لي ولكنْ لا يتسلَّطُ عليَّ شيءٌ* إنَّ الأطعمةَ للجوفِ والجوفَ للأطعمةِ وسيُبيدُ اللهُ هذا

تدعونا الكنيسة إذاً في هذا الأحد، نحن المؤمنين، أن نضع أمامنا هدف مسيرتنا وهو الاشتراك في الفرح الفصحي، فرح الله الآب، فرح الملكوت الآتي. وعلينا أيضاً أن نضع نصب أعيننا دائماً أنّ ما لنا هو من رحمة الله ومحبّته التي يسكبها علينا في المعمودية مطهِّراً إيّانا من خطايانا، وأن ندرك بالمقابل أنّه كما أحبّنا الله كذلك أحب غيرنا، وكما فرح الربّ بعودتنا ودعا آخرين أن يفرحوا معه هكذا علينا أن نشارك الرب بفرحه بعودة غيرنا: «هكذا أقول لكم يكون فرحٌ قدّام ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب» (لو ١٥: ١٠).

كل شيء مباح لي ولكن

«يا إخوةُ كلُّ شيءٍ مباحٌ لي ولكن ليس كلُّ شيءٍ يوافِق. كلُّ شيءٍ مُباحٌ لي ولكن لا يتسلّط عليَّ شيءٌ» (١ كو ١٢:٦). ما معنى كلمة مُباح؟ الإستباحة هي إستخدام أي شيء دون قيد أو شرط. لا مرجعية عند المستبيح سوى نفسه، غريزته، وإذا سألته لماذا تفعل هذا سيجيبك لأنني حر، ولا تقيّدني أية عقيدة أو عادة أو عُرف. ولكن هل هذا ما يبشّر به الرسول بولس؟ التفلّت التام؟ حاشا. فهو يتابع ليقول «ولكن ليس كل شيء يوافق».

«كل شيء طاهر للطاهرين وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شيء طاهراً بل قد تنجس ذهنهم أيضاً وضميرهم» (تيطس ١: ١٥). قد تساعدنا هذه الآية على فهم بولس الرسول: ليست النجاسة في الأمور بحد ذاتها، لكن في كيفية استخدامها. العلاقة الجسدية بين الرجل والمرأة في الزواج طاهرة، وقد بارك يسوع عرس قانا الجليل بحضوره وتحويله الماء خمراً، لكن العلاقات خارج الزواج زنى. الطعام حاجة جسدية طبيعية، وهذا ما دفع الرب إلى إكثار السمك والخبز لإطعام الجائعين، لكن الشراهة خطيئة.

كيف لنا أن نميّز بين ما يحل ويوافق وما يحل ولكن لا يوافق؟

أولاً، علينا التحرّر من طغيان عصرنا الإستهلاكي والإباحي. حين لا يعود الإنسان سيّد قراره فهو يُستعبَد لغريزته. ما يميّز الإنسان عن الحيوان ليس الكيان، ولا الذكاء، ولا اللغة، بل الحرية. الطبيعة محكومة بناموسها، والحيوان بغريزته، بينما للإنسان الخيار في كل شيء ، حتى في إنكار ربه وخالقه.

ثانياً، بما أننا قررنا أن نختار الموافق، علينا أن نستمع لضميرنا. والضمير يشبه إلى حدٍ ما سائر أعضاء الجسد: الإكثار من استعماله يقوّيه، وإهماله يقلّل من تأثيره. الكثير من الناس لم يعتادوا سماع صوت الضمير، أو ربما إختاروا إسكاته رغماً عنه، مما جعله غير موجود فعلياً، وفي حال وجوده فهو مبحوح الصوت.

ثالثاً، علينا ممارسة المسيحية بعمقها. فالمسيحية ليست مجموعة من الشرائع، ولا مجموعة من «اللاءات» (لا تقتل، لا تزنِ، لا تشهد بالزور...)، بل هي «وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا» (يو ١٣: ٣٤). هي «أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم» (مت ٥:٤٤). هي «مَن

وتلك».

لا شيء يسبّب فرحاً وصحةً كبيرين بقدر أن يأكل الإنسان ويشرب على قدر حاجة جسده الحقيقية وبذلك لا يزداد وزنه فوق المستوى الطبيعي. ولكي تقتنع، لاحظ أولاً الذين يأكلون باعتدال ثم الذين يأكلون بشكل مبالَغ فيه، فإنّ أجساد الأولين قوية بطبيعتها وصحية ومتماسكة إضافةً إلى أنّ أعضاءها تعمل بانتظام، بينما أجساد الآخرين رخوة وثقيلة وصعبة الحركة وسهلة الوقوع في الأمراض.

هل هذا مفرح؟ وهل نستطيع القول إنّ الشره يشعر حقاً باللذة عندما يأكل أصنافاً كثيرة ومتنوعة؟ لكن متى توجد لذة حقيقية؟ عندما تسبقها الرغبة ويتبعها إرضاء هذه الرغبة، وإن سعينا إلى اللذة من دون وجود رغبة أو إلى أبعد من حدود الرغبة، فحينئذٍ تختفي السعادة باللذة.

وكما أنّ المركب عندما يحمَّل ببضائع تفوق قدرته يغرق، هكذا أجسادنا أيضاً عندما تأخذ غذاءً أكثر ممّا تحتاج فإنها تغرق في بحر الفناء.

القديس يوحنا الذهبي الفم

ضربك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً» (مت ٥:٣٩)، هل أرقى من هذه الوصية؟

رابعاً، علينا التقيّد بالقوانين المدنيّة. فالقوانين وُضعت لتنظيم حياة البشر على الأرض، والواضح أن القوانين المدنية مستمدّة بطريقة أو بأخرى من الشرائع الإلهية، مع إختلاف المرجعية: الأولى (القوانين المدنية) تعيد السلطة للشعب، والثانية (الشرائع الإلهية) تعيدها للإله. والهدف من وضع القوانين ليس تقييد الحرية الشخصية، بل تنظيم الحريات: حريتي تنتهي عند بداية حريتك.

خامساً، علينا ألا نسمح لأي شيء بالتسلّط علينا. فقليل من الخمر يُفرح قلب الإنسان، بينما الكثير من الخمر يجعل منه سكيراً، مع ما يتبع ذلك من مشاكل إجتماعية وعائلية. الفكاهة من أجمل صفات الإنسان وهي تجعله قريباً من الآخرين وسريع الولوج إلى قلوبهم، لكن الإكثار منها قد يُفقد المرء رصانته، ولربما حوّله إلى مخبول. حتى القراءة في حال تسلطها قد تجعل من الإنسان كائناً لا إجتماعياً يحب كتبه أكثر من أولاده!

المشكلة الأساسية تكمن في صعوبة التخلّص من النقطة الأولى. نحن كمسيحيين لسنا دائماً بعيدين عن سطوة عصرنا الإستهلاكي. فالصائم نعتبره رجعياً يخضع لقوانين صعبة جداً وضعتها الكنيسة منذ ألفي سنة، بينما مَن يمارس الريجيم هو إنسان متمدن منظم يرعى جسده، علماً بأن بعض الريجيمات أصعب بكثير من الصوم! الفتاة (أو الشاب) البتول التي قررت ترك أغلى ما لديها لزوجها هي غبيةٌ وغير مرغوب بها، بينما المتفلتة تُصبح مثالاً لبنات مجتمعنا! غريب أمرنا. تجسّد المسيح لأجلنا فجعلنا بابا نويل هدف العيد. مات الرب يسوع وقام لأجلنا فحوّلنا الذكرى أرنباً وبيضة. وهكذا اختصرنا التاريخ الخلاصي باحتفالات دنيوية ثم بدأنا بالمطالبة بالتحرّر، من الله أولاً ومن القوانين ثانياً.

هل هذا هو التحرّر؟ التفلت من الخالق وعبادة الموضة؟ رفض قوانين الكنيسة والخضوع لشريعة الغاب (والتي للأسف تسود بلادنا مع غياب الدولة وبالتالي ضعف العدالة)! قمع الضمير ومساندة الغرائز الحيوانية؟ هنا نستذكر قول أحد الحكماء أن في داخل كل إنسان صراع بين ذئبين، الأبيض والأسود. وعند سؤاله «ومَن سيربح» أجاب: الذي تطعمه أكثر. إذا كان التحرّر المنادى به هو ما ذكرناه سابقاً ففخر لكل مسيحي حقّ أن يُدعى رجعياً. وإذا كان الإعتدال في المأكل والملبس وطاعة الله والوالدين والسير بحسب قوانين الدولة تخلفاً، فمتخلفون نحن.

أخيراً يقول الرسول بولس «أم ألستم تعلمون أن أجسادكم هي هيكل الروح القدس الذي فيكم الذي نلتموه من الله وأنكم لستم لأنفسكم» (١ كو ٦: ١٩). إنطلاقاً من هنا، يمكننا طرح هذا السؤال على أنفسنا قبل القيام بأي شيء: هل يليق هذا العمل بمسكن الروح القدس، أي بجسدنا؟

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:
www.quartos.org.lb